فتح القدير

ببيان آيات التخيير

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحوري الزعكري

عفا الله عنه

فتح القدير

ببيان آيات التخيير

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

.....

تفسير آيات التخيير

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدىٰ هدىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ ۚ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا

﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ٣٦﴾ [الأحزاب:٢٨-٣٦].

هذ آيات بينات وأدلة واضحات وحكم وعبرات ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ لنا فيما جرىٰ بين نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وبين أمهات المؤمنين الطاهرات المطهرات؛ فإنهنّ لمَّا ألححن وضيقن علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ في النفقة أمره الله تعالىٰ بتخييرهن.

وكانت أول من خُيرت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا؛ فعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ، لَمْ يُؤْذَنْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ، فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ، سَأَلَتْنِي النَّفَقَةَ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ، وَقَالَ: «هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى، يَسْأَلْنَنِي النَّفَقَةَ»، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَىٰ عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَىٰ حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ

مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فَقُلْنَ: وَاللهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا -أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ- ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٩]، قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ، قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ، قَالَ: «لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا».

فإنهن لمَّا أخترن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله والدار الآخرة بشرهن الله تعالىٰ بالخير العظيم والرزق الكريم والحياة السعيدة، وهددهنّ الله عَزَّوَجَلَّ وهنّ المصونات فإنهنّ طيبات مطيبات أن من أتت بفاحشة مبينة واضحة جلية ان الله عَزَّوَجَلَّ سيضاعف لها العذاب ضعفين وهذه الآيات فيها دروس للنساء المؤمنات:

* منها: أن المرأة يجب عليها أن تقدم ما من شأنه إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ.

* ومنها: وجوب السير علىٰ ما كان عليه رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

* ومنها: أن المرأة ينبغي أن تقدم ما من شانه رفع درجاتها ورفع منزلتها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والحذر كل الحذر من الفواحش؛ لأن ضررها عظيم سواء كانت فاحشة الزنا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ أو كان غير ذلك من الفواحش المستقبحة المحرمة في كتاب ربنا وفي سنة نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ

* وفي هذه الآيات: بيان من الله عَزَّ وَجَلَّ أن الإنسان كلما علت منزلته وزاد علمه قد يعرّض للوعيد أكثر غيره من الجهال: فإن المسلمين قد تسلط عليهم الجهل في كثير من البلدان، فلا يعرفون الحلال من الحرام، فربما رأيت المرأة تمشي كاشفة بوجهها رافعة لثيابها سافرة في ذهابها وإيابها والسبب في ذلك الجهل بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد يقع من الله عَزَّ وَجَلَّ تجاوز علىٰ مثل هذه النسوة بسبب الجهل وبسبب البعد علىٰ العلم لكن المتعلمة قد يحلقها من الإثم في نفس المعصية أعظم مما يلحق تلك المرأة المذنبة الجاهلة؛ لأن من علم قد أقيمت عليها الحجة وثبتت المحجة تسمع في ليلها ونهارها وفي بيتها وخارجة، والنصائح تلو النصائح، والتوجيهات تلو

التوجيهات، ولهذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، ويقول: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

* ومنها: ما وصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وأخبر بما أعدّ للقانتات من المسلمات، قال تعالىٰ: ﴿* وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾، فتقبل علىٰ الطاعة من صلاةٍ، وصيامٍ، وقيامٍ، وذكرٍ، وبرٍ، وطاعةٍ لزوجها، وتربية لأبنائها، وإكرام جيرانها، وحفظ لسانها إلىٰ غير ذلك من الطاعات، وتستمر علىٰ ذلك؛ فإن القنوت دوام الطاعة والاستمرار عليها تقنت لله وتلازم العمل الصالح فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيؤتيها أجرا عظيمًا، كما أن العذاب يضاعف علىٰ زوجات النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ إن ألممن بشيء فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد ضاعف لهن الأجور.

وهكذا طالبات العلم ومن يسمعن المواعظ فيستقمن عليها ويلازمن الأعمال الصالحة يرجىٰ لهن الخير، ويرجىٰ لهن الأجر علىٰ طلب العلم، والأجر علىٰ طاعة الله والأجر علىٰ المتابعة للنبي

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، والأجر علىٰ العفة، والأجر علىٰ القول الحسن، والأجر علىٰ الإحسان إلىٰ الاقارب والجيران والأرحام، والأجر علىٰ تربية الأبناء والبنات، وهكذا كم من الأجور التي تلحق المرء الصالح القانت المنيب.

* ومنها: ما وصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بما من شأنه زيادة الخير لنساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خصوصًا ولنساء الأمة عمومًا فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

فقوله: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: حث علىٰ التقوىٰ وهي المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي العمل بالكتاب والسنة علىٰ نور من الله والبعد عن المعاصي والسيئات علىٰ نور من الله، وسمي المتقي بهذا الاسم؛ لأنه يتقي عذاب الله وسخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالمرأة إذا أرادت أن تكون ملازمة لهذا الطريق طريق التقوىٰ فلتعمل بما من شأنه أن يكون زيادة للتقوىٰ وزيادة البر والإحسان والخير والصلاح.

ومن شأن المتقية: أن "لا تخضع بالقول" أي: تتمايل في قولها أو في مشيها أو في إجابتها؛ فإن الخضوع في القول مؤداه إلىٰ افتتانها وافتتان غيرها بها، وطمع أصحاب القلوب المريضة بها، قال تعالىٰ:

﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾، لكن عليها أن تقول القول الطيب والقول الذي لا خضوع فيه ولا تمايل ولا فتنة.

وفي هذا: بيان أنه لا يحرم كلام النساء مع الرجال مطلقًا، فقد تحتاج ان تتكلم مع من ليس بمحرم ولكن الذي يحرم هو الخضوع بالقول مما يؤدي إلىٰ فتنتها وإلىٰ فتنة غيرها بها.

* ومن أسباب ملازمة التقوى: القرار في البيت إلا لحاجة، قال تعالىٰ: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، والقرار السكون وعدم الخروج لغير حاجة، وسميت الحياة الأخرىٰ بحياة القرار؛ لأنها لا تحول عنها، فكذلك المرأة عليها أن تقر في البيت وتمكث في البيت ولا تخرج إلا لحاجة، وإذ خرجت لا تخرج متعطرة ولا متمائلة ولا متبرجة ولا شيء من ذلك، فإن ذلك ليس من سمات المسلمين، فقد جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- قال: «كَانَتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَاتَّخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ خَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ مُغْلَقٌ مُطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتْهُ مِسْكًا، وَهُوَ أَطْيَبُ الطِّيبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرْأَتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا» وَنَفَضَ شُعْبَةُ يَدَه، رواه مسلم.

ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»، أخرجها النسائي عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في "الصحيح المسند".

فهذا فعل الزواني وليس بفعل الحرائر المصونات والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما ثبت عن زينب الثقفية قال: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاءَ فَلَا تَطَيَّبْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ»، وفي رواية: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلا تَمَسَّ طِيبًا»، رواهما مسلم في صحيحه.

فالمرأة مأمورة بالقرار في البيت وعدم الخروج وإن خرجت تخرج لحاجة مع الآداب الشرعية من غض البصر، وكف الأذىٰ، وأخذ جانب الطريق، والستر في اللباس، وعدم التطيب.

* ومنها: عدم التبرج؛ لأنه فعل الجاهلية ففيه النهي عن التشبه بالكفار، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾، فالتبرج من شان أهل الجاهلية من شأن الكفار الذين لا يخافون الله ولا يعملون بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أما المسلمة شأنها عظيم ينبغي أن تقرّ في البيت، وإذا خرجت من البيت أن تلازم ما من شأنه الستر لها والبعد عن فتنتها وفتنة غيرها.

* ومنها: إقام الصلاة والمحافظة عليها قال تعالىٰ: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع القرار في البيت ومع عدم الخضوع بالقول ومع اصلاح الظاهر والباطن ينبغي لها أن تكون متقربة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة الركن العظيم الصلاة التي من تركها فقد كفر، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»، أخرجه مسلم.

وأن تصلي كما صلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ فتتعلم كيف تصلي وكيف تذكر ربها، وكيف تدعوه، وتحسن الوضوء، والخشوع، والركوع، وتكون طاهرة الثوب والبدن والمكان، وتفعل ما من شأنه أن تصلي كما صلىٰ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، رواه البخاري.

وينبغي لها: أن تتقرب إلىٰ الله بأنواع القربات في هذا الباب من صلاة الضحىٰ، والنوافل القبلية والبعدية، ومن قيام الليل، ومن صلاة الاستخارة ومن غير ذلك ففي في هذا أجر عظيم.

ومنها: ما أمرهن الله عَزَّوَجَلَّ بإتاء الزكاة: قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، فإن بلغ مالها النصاب تؤدي الزكاة المفروضة؛ فإن لم يكن لها مال نصاب تتصدق مما لا إفساد فيه من مال زوجها؛ فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «إِذَا أَنفَقَتِ

المَرأَةُ مِن بَيْتِ زَوجِهَا غَيرَ مُفسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا، وَلَهُ مِثلُهُ بِمَا اكتَسَبَ، وَلَهَا بِمَا أَنفَقَت، وَلِلخَازِنِ مِثلُ ذَلِكَ، مِن غَيرِ أَن يَنتَقِصَ مِن أُجُورِهِم شَيئًا»، متفق عليه.

وتتصدق ولو بالمرق، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»، أخرجه مسلم، وتؤتي الجيران الأقرب فالأقرب، فإن لم تجد ما تتصدق به؛ فـ«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»، فالكلمة الطيبة صدقة، تحسن إلىٰ أخواتها المسلمات بالكلمة الطيبة من غير جرح لمشاعرهن ومن كلام في أعراضهن ومن غير اذية للمسلمين؛ كما في حديث أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ».

ومنها: أن علىٰ المرأة أن تطيع الله تعالىٰ ورسوله الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهذا من الإجمال بعد التفصيل.

وأعظم ما يُطاع الله تعالىٰ به: التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد، فالله تعالىٰ هو الذي خلقها ورزقها وأنعم عليها وكساها وهداها وأواها، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾، فالطاعات ليست للرجال فقط بل هي مطلوبة من الرجال والنساء قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾، لكن قد تجد التقصير عند النساء أكثر فجاءت هذه الآيات البينات الواضحات الجليلات في حث النساء علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له والمراقبة له في السر والعلن: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء:٢١٨-٢٢٠].

ولتحقيق هذا الباب يجب البعد عما يناقضه من الشركيات؛ فإن النساء يقع منهم التعلق بالحروز والتمائم، وربما الذهاب إلىٰ السحرة والمشعوذين أكثر من الرجال.

ويدخل في ذلك: طاعة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ ومتابعته فيما ليس من خصائص الرجال، فيجب أن تطيعه في ما أمر وتنتهي عن ما نهىٰ عنه وزجر وتصدقه فيما أخبر.

ويدخل فيها: طاعة الزوج في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ فإن حقه عظيم علىٰ ما هو مبين في موطنه.

ومن ذلك الاهتمام بتربية الأبناء علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ فإن ذلك من الأمانة.

وتحقيق ما تقدم: سبب لطهارة الأنفس وزكاتها وسبب لغفران الذنوب وستر العيوب، فقد بين الله عَزَّوَجَلَّ أن طاعة الله ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومع القرار في البيت وملازمة أسباب العفة، من ترك التبرج والخضوع في القول فإنه مما يذهب الرجس وهو الشر والخبث، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ٣٣﴾، فهذه العبادات الجليلات ليست محصورة علىٰ زوجات النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وإنما هي عبادات جليلات يشترك معهن غيرهن فيها.

والذي نستفيده من الآية: أن المرأة التي تريد أن تجتنب الرجز وان تطهر نفسها وقلبها؛ أن تحافظ علىٰ ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات البينات الواضحات الجليلات.

* ومنها: وصية الله عَزَّوَجَلَّ بما فيه نفع نساء النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ وغير من نساء المسلمين، وفيها نفع للرجال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ﴾ أي: اذكرن القرآن واذكرن السنة واعملن بالقرآن والسنة، فالحكمة هي السنة والعمل بالقرآن والسنة الصحيحة هو غاية الفلاح وسبب السعادة في الدارين وسبب لصلاح الظاهر والباطن.

ثم قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ فمع علم الله عَزَّوَجَلَّ ببواطننا وظواهرنا وإسرافنا في أمرنا وبتقصيرنا لكنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لطيف بعباده فيعاملهم باللطف واللطيف هو الذي يسوق عبده إلىٰ الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق، ما لا يدريه، ويريه من الأسباب، التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقًا له إلىٰ أعلىٰ الدرجات، وأرفع المنازل.

ومن لطفه: أنه يتجاوز عنهم، ووالله لو يؤاخذنا الله عَزَّوَجَلَّ بما نعمل وما تعمل نساؤنا ما بقينا، فإننا نتعاطىٰ ذنوب كثيرة نسأل الله السلامة، ونفرط في شأن عظيم لكن الله تعالىٰ لطيف بعباده مع علمه بهم، فالخبير بمعنىٰ: العلم وهو المطلع علىٰ بواطن الأمور، فالله

عَزَّوَجَلَّ مع اطلاعه علىٰ بواطن الأمور فمن باب أولىٰ ظواهرها إلا أنه لطيف بعباده رحيم بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الوصية الجامعة في هذه الآيات:

ثم قال بعد ذلك مبينًا الأجر العظيم للرجال والنساء ممن يحافظ علىٰ ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في تفسيره: لما ذكر تعالىٰ ثواب زوجات الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وعقابهن -لو قدر عدم الامتثال-، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحدًا، جعل الحكم مشتركًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الشدائد والمصائب، ﴿وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصًا في عباداتهم، خصوصًا في صلواتهم، ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ فرضًا ونفلًا، ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ شمل ذلك، الفرض والنفل. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الزنا ومقدماته، ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصًا أوقات الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات، ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان فجازاهم على عملهم "بِالْمَغْفِرَةِ" لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم. انتهى

فكل هذه الاصناف موعودة بالأجر العظيم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواء كانوا رجالًا أو نساءً، فعلىٰ المسلم أن يستسلم لله بالتوحيد وينقاد له بالطاعة ويبرأ من الشرك وأهله، وعليه أن يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في أعماله القلبية فيؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وعليه أن يحافظ علىٰ الصلاة الصيام والقيام ويلازم الطاعات ليكون قانتًا لله عَزَّوَجَلَّ مخبتًا ومنيبًا إليه، وعليه أن يصْدق الحديث، وأن يصدق في قوله ومنقوله، قال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «وكفى بالمرءِ إثمًا أن يحدِّثَ بكلِّ ما سمِعَ» صححه الالباني في صحيح ابي داود من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا» متفق عليه.

فعلىٰ الرجال والنساء: أن يلازموا الصدق في القول والصدق في العمل، فكما أن هنالك صدق في القول فهناك صدق في العمل وصدق في القلب فصدق القلب الإخلاص ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من العبد عملًا إلا باجتماع الصدقين: صدق القلب، وصدق المتابعة الظاهر والباطن.

ثم أيضًا: حث علىٰ الصبر علىٰ أقدار الله الكونية وعلىٰ شرائع الله وعن نواهي الله فإن الانسان لا حياة له إلا بالصبر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

ثم أيضًا: يكون خاشعًا لله عَزَّوَجَلَّ لعبادته مراقبًا له خاشيًا إلىٰ غير ذلك.

ثم يصوم كما صام النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ ويصبر ويذكر الله كثيرًا ويحفظ فرجه، قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰآلِهِوَسَلَّمَ: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، أخرجه الترمذي، فكذلك النساء تحفظ عورتها وتحفظ نفسها وتحافظ كرامتها وعفتها؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ أعزنا بالإسلام وأعزنا بالاستقامة فمن ابتغىٰ العزة في غير الإسلام أذله الله.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه من الآيات: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

وقد جاء في هذه الآية سبب نزول وهي قصة جلييب.

وفي الآية: إشارة إلىٰ المحافظة علىٰ ما تقدم بيانه، فالمؤمن والمؤمنة ليس له الخيرة يقول: أأخذ بكذا وأترك كذا، لا نحن عبيد لله والعبد ينبغي أن يكون علىٰ مراد سيده لا يجاوز مراد سيده وإلا كان عاقًا وكان آبقًا واستحق البعد بقدر عقوقه.

هذ ملخص علىٰ ما تضمنته هذه الآيات البينات، وإلا لو استطردنا في شرحها لطال المقام لكننا نشكو إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من قلة العمل وكثرة الإعراض، وقلة الطاعات، وكثرة المعاصي، وقلة الإنابة وكثرة البعد، فالله الله في طاعة الله، والله الله فيما يقربنا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، (ووالله لو الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا).

فينبغي لنا أن نشكر الله علىٰ ما أنعم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾، فمن أعظم ما يشكر الله عَزَّوَجَلَّ به: المحافظة علىٰ الطاعات الرجال والنساء جميعًا في لباسهم، وكلامهم، وحركاتهم، وسكناتهم، المرأة مع زوجها، مع

جارتها، مع زميلها، مع أختها، حفظ اللسان والفرج، حفظ كذلك الجسم من عدم خروج زينتها إلىٰ غير ذلك مما أوجب الله ومما يكرر دائمًا في مثل هذه الدروس، نسال الله عَزَّوَجَلَّ لنا ولكم التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

تفسير آيات التخيير ١

الوصية الجامعة في هذه الآيات ١٥

المحتويات ٢١